

فتح القدير

وقوله : 45 - { واستعينوا بالصبر } الصبر في اللغة : الحبس وصبرت نفسي على الشيء : حبستها ومنه قول عنتره : .

(فصبرت عارفة لذلك حرة ... ترسو إذا نفس الجبان تطلع) .

والمراد هنا : استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات وقصرها على الطاعات على دفع ما يرد عليكم من المكروهات وقيل : الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة واستدل هذا القائل بقوله تعالى : { وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها } وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما تفيد الألف واللام الداخلة على الصبر من الشمول كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما تصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة ونافلة واختلف المفسرون في رجوع الضمير في قوله : { وإنما لكبيرة } فقيل : إنه راجع إلى الصلاة وإن كان المتقدم هو الصبر والصلاة فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما كما قال تعالى : { وإرسوله أحق أن يرضوه } إذا كان أحدهما داخلا تحت الآخر بوجه من الوجوه ومنه قول الشاعر : .

(إن شرح الشباب والشعر الأسود ... ود ما لم يعاض كان جنونا) .

ولم يقل ما لم يعاض بل جعل الضمير راجعا إلى الشباب لأن الشعر الأسود داخل فيه وقيل : إنه عائد إلى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لأن الصبر هو عليها كما قيل سابقا وقيل : إن الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مرادا معها لكن لما كانت أكد وأعم تكليفا وأكثر ثوابا كانت الكناية بالضمير عنها ومنه قوله : { والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله } كذا قيل وقيل : إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة ومثل ذلك قوله تعالى : { وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها } فأرجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعا وأكثر جودا والتجارة هي الحاملة على الانفضاض والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول أن الصبر هناك جعل داخلا تحت الصلاة وهنا لم يكن داخلا وإن كان مرادا وقيل : إن المراد بالصبر والصلاة ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر ومنه قوله تعالى : { وجعلنا ابن مريم وأمه آية } أي ابن مريم آية وأمه آية ومنه قول الشاعر : .

(ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب) .

وقال آخر : .

(لكل هم من الهموم سعة ... والصبح والمساء لا فلاح معه) .

وقيل : رجع الضمير إليهما بعد تأويلهما بالعبادة وقيل : رجع إلى المصدر المفهوم من قوله : { واستعينوا } وهو الاستعانة وقيل : رجع إلى جميع الأمور التي نهى عنها بنو إسرائيل والكبيرة التي يكبر أمرها ويتعاطم شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ومنه { كبر على المشركين ما تدعوهم إليه } والخاشع : هو المتواضع والخشوع : التواضع قال في الكشاف والخشوع : الإخبات والتطامن ومنه الخشعة للرملة المتطامنة وأما الخضوع : فاللين والنقياد ومنه خضعت بقولها : إذا لينته انتهى وقال الزجاج : الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الأقوى ومكان خاشع : لا يهتدى إليه وخشعت الأصوات : أي سكنت وخشع بصره : إذا غصه والخشعة : قطعة من الأرض رخوة وقال سفيان الثوري : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثوري أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ؟ ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأئ الرأس لكن الخشوع أن ترى الشريف والدين في الحق سواء وتخشع □ في كل فرض افترض عليك انتهى وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته : إنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة وإتعا بهم لأنفسهم إتعا با عظيما في الأسباب الموجبة للحضور والخضوع لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد □ به من عظيم الثواب تسهل عليهم تلك المتاعب ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب بل يصير ذلك لذة لهم خالصة وراحة عندهم محضة ولأمر ما هان على قوم ما يلاقونه من حر السيوف عند تصادم الصفوف وكانت الأمنية عندهم طعم المنية حتى قال قائلهم : .

(ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في □ مصرعي) .

والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى : { إنني ظننت أنني ملأق حسابيه } وقوله : { فظنوا أنهم واقعوها } ومنه قول دريد بن الصمة : .

(فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم بالفارسي المسود) .

وقيل : إن الظن في الآية على بابه ويضم في الكلام بذنوبهم فكأنهم توقعوا لقاءه مذنبين ذكره المهدوي والماوردي والأول أولى وأصل الظن : الشك مع الميل إلى أحد الطرفين وقد يقع موقع اليقين في مواضع منها هذه الآية ومعنى قوله : { ملاقوا ربهم } ملاقوا جزاءه والمفاعلة هنا ليست على بابها ولا أرى في حمله على أصل معناه من دون تقدير المضاف بأسا وفي هذا مع ما بعده من قوله : { وأنهم إليه راجعون } إقرار بالبعث وما وعد □ به في اليوم الآخر وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : { واركعوا } قال : صلوا وأخرج ابن أبي حاتم أيضا عن مقاتل في قوله : { واركعوا مع الراكعين } قال : أمرهم أن يركعوا مع أمة محمد يقول : كونوا منهم ومعهم وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى : {

أتأمرون الناس بالبر { الآية قال : أولئك أهل الكتاب كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ولا ينتفعون بما فيه وأخرج الثعلبي والواحي عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة كان الرجل منهم يقول لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الدين الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل يعنون محمدا A فإن أمره حق وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه وأخرج ابن جرير عنه في قوله : { أتأمرون الناس بالبر } قال : بالدخول في دين محمد وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسلي ؟ وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي عن أبي الدرداء في الآية قال : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله A : [رأيت ليلة أسري بي رجلا تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون] وثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله A يقول : [يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون : يا فلان ما لك ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية] وفي الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعا عند الخطيب وابن النجار وعن الوليد بن عقبة مرفوعا عند الطبراني والخطيب بسند ضعيف وعند عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه موقوفا ومعناها جميعا : أنه يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : بما دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم ؟ قالوا : إنا كنا نأمركم ولا نفعل وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله A : [مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه] وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه نحوه وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة مرفوعا نحوه وأخرج ابن قانع في معجمه والخطيب في الاقتضاء عن سليك مرفوعا نحوه وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : [ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات] وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن مسعود مثله وما أحسن ما أخرجه ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال : يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر

قال : أوبلغت ذلك ؟ قال : أرجو قال : فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب ا فافعل
قال : وما هن ؟ قال : قوله D : { أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم } أحكمت هذه الآية
؟ قال لا قال : فالحرف الثاني قال : قوله تعالى : { لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا
عند ا أن تقولوا ما لا تفعلون } أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا قال : فالحرف الثالث قال :
قول العبد الصالح شعيب { ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه } أحكمت هذه الآية ؟ قال
: لا قال : فابدأ بنفسك وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى : { واستعينوا بالصبر
والصلاة } قال : إنهما معونتان من ا فاستعينوا بهما وقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب
الصبر وأبو الشيخ في الثواب والديلمي في مسند الفردوس عن علي قال : قال رسول ا A : [
الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية] وقد وردت أحاديث
كثيرة في مدح الصبر والترغيب فيه والجزاء للمصابرين ولم نذكرها هنا لأنها ليست بخاصة
بهذه الآية بل هي واردة في مطلق الصبر وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ها هنا منها
شطرا صالحا وفي الكتاب العزيز من الثناء على ذلك والترغيب فيه الكثير الطيب وأخرج أحمد
وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال : [كان النبي A إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة] وأخرج
أحمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي A قال : [كانوا : يعني الأنبياء يفزعون إذا
فزعوا إلى الصلاة] وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن أبي الدرداء مرفوعا نحو حديث
حذيفة وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس
أنه كان في مسير له فنعي إليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال : فعلنا كما
أمرنا ا فقال : { واستعينوا بالصبر والصلاة } وقد روى عنه نحو ذلك سعيد بن منصور وابن
جرير وابن المنذر والبيهقي لما نعي إليه أخوه قثم وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة
والتابعين وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : { وإنما لكبيرة } قال : لثقيلة وأخرج
ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : { إلا على الخاشعين } قال : المؤمنين حقا
وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله : { إلا على الخاشعين } قال المؤمنين حقا